

المقومات التربوية للزاوية العدلية¹ في تثبيت قيم السلم الاجتماعي
*The educational components of Zawia al Adlyia in establishing the
 values of social peace*

1- د. آيت سوكي محند أكلي*، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)

aitsouki.ma@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022 /03/14 تاريخ القبول: 2022 /06/10 تاريخ النشر: 2022 /06/15

ملخص:

تتناول هذه الدراسة، التعريف بقلعة من قلاع الفكر والثقافة في منطقة الزاوية (لقبايل)، ودور الزوايا (لمعمرات، ثيمعمرين) في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية بالمنطقة، ومن أهم هذه القلاع زاوية (ثيمعمرث) الشيخ الولي الصالح، والعالم العامل: أبو زكرياء يحيى العدلي، التي أسسها في القرن التاسع الهجري/15م بالمنطقة الجبلية الداخلية البعيدة عن نفوذ سلطة أمراء بني حفص في بجاية.

لقد ساهمت هذه الزاوية بفضل مكانة مؤسسها، وأحفاده الذين تعاقبوا على تسييرها بعده، في تحقيق العدالة الاجتماعية بين الساكنة، وتمكنت من إحلال السلم الاجتماعي بينهم، وبين السلطة المركزية، بل عوضت الفراغ السياسي السائد في الناحية، فتحوّلت إلى مركز من مراكز حل المسائل الخلافية بفعل القيم التربوية التي عمل على تطبيقها المؤسس وشيوخها حتى أضحت تعرف المنطقة باسم: عرش آث عيذل.

كلمات مفتاحية: آث عيذل، العدلي، الزاوية (ثيمعمرث)، ثمقرة.

*- المؤلف المرسل

¹- الزاوية العدلية: نسبة إلى مؤسسها الشيخ يحيى العدلي الذي عاش في القرن التاسع الهجري /15م.

Abstract:

This study deals with the introduction of a castle of thought and culture in the Zawawa region

(For Kabylie), and the role of the corners (Lamraat, Thiemmarin) in the cultural, social and political life of the region, the most important of which are the corner (Thiemmarth) Sheikh Al-Wali al-Saleh, and the working world: Abu Zakaria Yahya al-Adli, which he founded in the 9th century AH/15 AD in the inner mountain region far from the influence of the authority of the princes of Bani Hafs in Bejaia.

This angle has contributed thanks to the status of its founder, and his successive descendants Its conduct after it, in the achievement of social justice among the inhabitant, .Enter your abstract here (The abstract refers to the problem of research, its sub-problems and the totality of its ideas and results). It was able to bring social peace between them and the central authority, and even compensated for the political vacuum prevailing in the area, and became one of the centres for resolving contentious issues because of the educational values applied by the founder and its elders until the region became known as the Throne of Ath Eidel.

Keywords: Ath Ayth, Al-Adli, Zawiya (Thiemmarth), Thamqara

مقدمة: إن تحديد تاريخ بداية ظهور المعمرات² (الزوايا) في منطقة الزاوية (لقبايل)³ من الأمور الصعبة على الباحث، حتى وإن كانت بعض المصادر والمراجع التاريخية تذكر بعضاً منها كزاوية الشيخ أبي زكريا يحيى الزواوي وهو من أهل القرن السابع الهجري/ 13م بحضيرة بجاية لكون التعليم قبل العهد العثماني كان حكراً على الشيوخ وليس المعاهد⁴. فابن خلدون لا يشير إلى أي دور أو وجود للزوايا. وكذا الغبريني الذي لم يشير إلى وجود الزوايا خارج مدينة بجاية⁵، وهذا يدل على أن ظاهرة الزوايا قبل القرن الثامن الهجري/ 14م لم تكن منتشرة في بلاد الزاوية المحرومة طبيعياً سطحاً وعمقاً⁶.

خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ 14 و15م، بدأت تظهر هذه الزوايا في المنطقة والتي تحولت إلى قلاع علمية ودينية تخرج منها العديد من جهابذة العلم والمقرئين الذين تركوا بصماتهم وإسهاماتهم في مختلف الميادين، ولعل من بين أوائل هذه الزوايا في عمق المنطقة زاوية الشيخ أحمد بن إدريس (أستاذ ابن خلدون في بجاية) قبل أن يخرج منها متوجهاً إلى جبال جرجرة أين أسس زاويته التي تحولت إلى مركز علمي مرموق في المغرب الإسلامي قصده الطلبة من كل حذب وصبوب. وبعد هذا المعهد، ظهرت زوايا أخرى في المنطقة والجهات الداخلية من المنطقة، منها: زاوية أحمد بن عبد الله، وزاوية واعلي بن الحاج، وزاوية سيدي علي نتغلاط، وزاوية سيدي عبد القادر الجيلاني بعرض بني يعدل، وزاوية الشيخ سيدي يحيى العدلي التي أحدثت نهضة فكرية ليس في العرش فقط، بل في المنطقة كلها. فمن هو الشيخ العدلي؟ ومتى أسس زاويته؟ وما هي إسهاماته في تثبيت قيم السلم الاجتماعي في المجتمع المحلي خلال حياته، وبعد وفاته؟

الشيخ يحيى العدلي: هو أبو زكريا يحيى بن أحمد بن موسى بن مغيث بن نوح بن عجيس، بن عبد الرحمن... بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر... فهو من الأشراف المرابطين الذي حلوا ببلاد زاوية القادمين من الساقية الحمراء ووادي الذهب، وهذا ما يؤكد الورثيلاني عند ذكره لكرامة من كراماته، فقال: «ومنها أن سيدي يحيى كان غائبا لبعض مصالح المسلمين، فرأى في النوم أن زوجته الشريفة رجعت يهودية، فتحير من تلك الرؤيا، فلما رجع إلى بيته سأله عن حالهم وما وقع من

² - المعمرة، باللسان المحلي (ثيمعمرث)، هو المكان الذي يدرس فيه الطلبة العلوم الدينية والشريعة، والقرآن الكريم، ففي المنطقة تطلق هذه التسمية على الزاوية التعليمية. والكلمة مشتقة من الامتلاء، والزاوية عادة تكون ممثلة بالطلبة الذاكرين الله قياماً وقعوداً، فمنها أخذت التسمية.

³ - لقبايل، أو القبايل، وهو المصطلح الذي كرسه الكتابات الفرنسية خاصة والغربية عامة، أما التسمية التاريخية للمنطقة فهي: منطقة الزاوية، أنظر:

عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،

⁴ - أحمد ساحي: الزاوية من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر عهد إمارة كوكو 1512-1767، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، 2013، ص 226.

⁵ - أبو العباس أحمد الغبريني (ت 704هـ): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تقديم وتحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 133، 134.

⁶ - ساحي: المرجع السابق، ص 226.

شأنهم، وهل وقع منك شيء في غيبي من القول أو فعل؟ فقالت له والدته: إن زوجتك قالت لابنتها يا حسب السوء، وقد زجرتها وأنكرت عليها. فقلت لها مقام سيدي يحيى عال أي مقام ابنتها، فقال سيدي يحيى: الطفلة شريفة وأنت تقولين لها ذلك، فقد كفرت لاستنقاصها مكان النبوة، فقال لها: توبي لله، فتابت عندما ذكر لها الرؤيا». ⁷

مولده ونشأته:

تذكر الروايات الشفوية أن: الشيخ سيدي يحيى العدلي، ولد بقرية (ثاقراث) التابعة حاليا لبلدية: إغيل علي، دائرة إغيل علي، ولاية بجاية، ويعرف بعرش آث⁷ عباس. إذ ترك والده (أحمد) زوجته (ربيحة) عند عائلة ميسورة الحال بالقرية، والتي هي عائلة أجداد المقرانيين، وقد كان والد العدلي ضمن قافلة الحجيج القادمة من المغرب الأقصى مصطحبا معه زوجته، ولما وصل إلى هذه القرية لاحظ عن زوجه أنها غير قادرة على مواصلة السير، فتركها عند هذه العائلة مواصلا سيره مع القافلة التي جاء معها. وأثناء غيابه، وضعت مولودها في هذه القرية، وسمته يحيى، وذلك في تاريخ غير معلوم، وإلى هذا يشهد الورثيلاني بقوله: «...وأنه كان في ساحل بني عباس وبه ولد، موضع ولادته معلوم، وقد حوط ببناء فصار مزارا، وقد زرته والحمد لله»⁸.

نشأ الشيخ سيدي يحيى يتيما، فرعنه أمه، وتعلم قليلا من العلوم المتداولة في وقته على أئمة القرية، وبعد ذلك انتقلت به والدته إلى قرية (وان علي) التي كانت فيها زاوية عامرة بالطلبة، حيث تذكر المصادر التاريخية: «أن عدد الطلبة الذين كانوا فيها حوالي أربعمئة طالب»⁹، وكان يدرس في هذه الزاوية الولي الصالح الشيخ: المسعود ولحاج الزيكوي¹⁰، وبعد حفظه للقرآن الكريم على هذا الشيخ، انتقل إلى حضيرة بجاية للأخذ عن علماءها الذين كانت تعج بهم معاهدها، فأول من أخذ عنه العالم الفقيه الشيخ: أحمد بن إبراهيم البجائي (ت 840هـ / 1434م) الذي قال فيه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي - زميل الشيخ العدلي في الدراسة - لو أن شخصا لم يعص الله تعالى لكان الشيخ أحمد بن إواهيم البجائي¹¹، كما أخذ عن الشيخ: سيدي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وفا القرشي الإسكندري الطريقة الشاذلية¹². حيث ورد اسم الشيخ العدلي في سند الطريقة العلوية إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي كما هو في السلسلة الآتية:

- سيدنا ومولانا سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

⁷ - آث: تعني (بني) باللغة العربية.

⁸ - الورثيلاني، المصدر السابق، ج2، ص 598.

⁹ - ورقة من مخطوط مجهول المؤلف والعنوان، أنظرها في الملحق.

¹⁰ - هو الولي الصالح العالم الجليل:

¹¹ - الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص 26.

¹² - نفسه، ص 27.

- سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.
- سيدنا التابعي الجليل الإمام الحسن البصري.
- سيدنا حبيب العجبي.
- سيدنا داوود بن نصير الطائي.
- سيدنا أبو محفوظ معروف بن فيروز الطائي
- سيدنا أبو الحسن سري السقطي.
- سيدنا أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي سيد الطائعتين.
- سيدنا أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي.
- سيدنا أبو الفرج عبد الوهاب التميمي.
- سيدنا أبو الفرج الطرطوسي.
- سيدنا أبو الحسن علي بن يوسف الهكاري.
- سيدنا سعيد بن المبارك المخزومي.
- سيدنا الغوث أبو محمد محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني.
- سيدنا الغوث أبو مدين شعيب الأنصاري.
- سيدنا عبد الرحمن المدني العطار الزيات.
- سيدنا القطب عبد السلام بن مشيش.
- سيدنا سيدي القطب الجامع أبو الحسن أبو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف الهذلي الشاذلي الحسني.
- سيدي أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد المرسي الأندلسي الأنصاري.
- سيدنا تاج الدين داوود بن عمر الباخلي السكندري المالكي.
- سيدنا محمد وفا بحر الصفا القرشي الأنصاري الشاذلي.
- سيدنا أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وفا.

- سيدنا يحيى العدلي¹³.

هذا ويذكر بعض الباحثين أن الشيخ العدلي درس على علماء آخرين منهم: الشيخ أبي القاسم المشدالي، والشيخ أبي الحسن المنقلاتي، والشيخ أبي الربيع سليمان الزواوي وغيرهم¹⁴.
على كل، فإن الشيخ العدلي، أخذ عن عدد من العلماء الذين كانت تعج بهم هذه الحاضرة العلمية، كما أخذوا عنه هو. لكون التعليم لم يكن محتكراً على الشيوخ المعلمين فقط. بل جرت العادة على أن الطلاب كثيراً ما كانوا يفيدون شيوخهم، كما وقع بين العدلي، وتلميذه الشيخ أحمد زروق البرنسي الذي أخذ عن العدلي علوم الباطن، بينما أخذ عنه الشيخ العدلي علوم الظاهر¹⁵.

تأسيس العدلي لزاويته:

بعد إتمام العدلي لدراسته على علماء بجاية، أقفل راجعاً رفقة زميله في الدراسة الشيخ العالم: سيدي عبد الرحمن الثعالبي¹⁶. وفي الطريق، سأل الشيخ العدلي زميله عن رأيه في مرافقته إلى المدينة، أو البقاء في هذه المنطقة الجبلية لنشر العلم، وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى النور، فكان جواب الثعالبي: «إن أردت الدنيا فعليك بالحاضرة، وإن أردت الآخرة فعليك بالبادية». فاختار العدلي البادية لخدمة الدين والعلم، وعاد إلى القرية التي تعلم فيها، وبدأ في تقديم الدروس على الطلبة في زاوية وان علي، ثم ظهر له أن مكان الزاوية لا بد أن يكون بعيداً عن صخب الحياة، فاختار بناءها في هذا المكان (ثمقرة)¹⁷، والتي كانت خالية السكان، وكثيرة الأشجار والمياه، فالموقع يوحى بما هو عاشق له، وهي دلائل التوحيد، ومقر عمق التفكير، فبنى فيها زاويته التي سرعان ما عرفت إقبالا كبيراً من طلبة العلم، وانتقل إليها من تعلق قلبه بشيخها من آل وان علي، وبدأت تتأسس قرية ثمقرة حول الزاوية التي لم يبق منها الآن سوى مسجد الطلبة¹⁸.

لقد تحولت هذه الزاوية، وفي فترة وجيزة إلى قطب علمي، قصده العديد من الطلبة سواء من المنطقة، أو من خارجها. ولم تمض فترة حتى بدأت الدفعات الأولى تؤتي أكلها بإذن ربها، فانتشر طلاب الشيخ في القرى المحيطة بالزاوية ينشرون العلوم التي تعلموها عن شيخهم، فأحدث الشيخ العدلي ثورة علمية في المنطقة التي كانت من قبل ينتشر فيها الجهل، وقد وصف ذلك تلميذه الصباغ في قصيدته التي رثى فيها الشيخ العدلي قائلاً:

¹³ - الورثيلاني: شوارق الأنوار...، ج1، ص ص 41، 42.

¹⁴ - نفسه، ص 28.

¹⁵ - الورثيلاني، شوارق الأنوار...، ج2، ص 595.

¹⁶ - محمد الطاهر آيت علجت: حياة الشيخ سيدي يحيى العدلي، محاضرة في الملتقى الولائي الأول حول أعلام منطقة بجاية، نظارة الشؤون الدينية لولاية بجاية، مارس 1997، ص 3.

¹⁷ - ثمقرة، اسم مكان من قرأ، يقرأ، مقرأة، وفي اللغة الأمازيغية يسبق الاسم حرف التاء، فأصبحت تنطق ثمقرة.

¹⁸ - ورقة في الموضوع أمديني بها المرحوم: محمد أمزيان لخساف.

أتى بعد ما غلب الضلال على الورى وأصبحت الدنيا دجى في دجنة
وبعد فساد الدين والناس في عمى حيارى فلا يوجى لهم بوء علة
وما منهم إلا ويشكو مصابه ومن ينتصرو منه يعاقب بصولة
وما منهم ويدعو لمن يرى ويسمع للداغي بحزن وعبرة¹⁹

لقد أثمرت فكرة توزيع طلبة الزاوية العدلية على القرى المحيطة بها، نتائج هامة في مختلف الجوانب الحياتية، سواء تعلق الأمر بالجانب التعليمي، أو الجانب الديني، أو الجانب الاجتماعي... فبدأت أفكار الشيخ العدلي الإصلاحية تنتشر في محيط العرش وخارجه بواسطة طلبة الشيخ الذين عملوا وبتوجيهه على إنشاء الكتاتيب والزوايا في القرى القريبة إلى الزاوية، وبدأ الطلاب المتخرجين من زاوية الشيخ العدلي يعملون على النهج الإصلاحى الذي انتهجه شيخهم.

نماذج من طلبة الشيخ العدلي:

لقد اقتدى العديد من طلبة الشيخ العدلي بشيخهم، وعملوا على نشر العلم عن طريق الكتاتيب والزوايا التي أسسوها في القرى المختلفة، سواء على مستوى عرش آث عيذل، أو خارجه. فهذا الشيخ: إبراهيم بن عمار يؤسس كتابا في قرية بوحزمة، والشيخ سيدي يحيى أوموسى يؤسس زاوية بقرية فريحة، والشيخ سيدي يذير الجمهوري في قرية أذرار أن سيدي يذير، والشيخ أحمد بن يوسف الملقب بالملياني وفاة الذي أسس زاوية بقرية حنديس القريبة من القرية التي ولد فيها الشيخ العدلي، وكذا الشيخ أحمد بن عبد الرحمن -جد المقوانين- الذي أسس زاويته بالقلعة، بينما كلف طالبه الفاسي سيدي: أحمد زروق بالانتقال إلى عرش آث وغليس ليؤسس زاويته بقرية إزوقن وبتموين من شيخه العدلي²⁰، بعدما أكمل دراسته على شيخه العدلي، وألف عددا من مؤلفاته في مسجده المعلوم بقرية ثمقرة²¹

هكذا بدأت الثمرات الأولى تعطي نتائجها في محيط الزاوية، وبدأت اللبانات الأولى للشيخ العدلي تتضح بين أفراد المجتمع المحلي. فكان الشيخ العدلي رحمة للوطن وغيثا للبلاد²². هذا، وقد قصده للتعلم عليه الشيخ محمد علي الخروبي من طرابلس الغرب، الذي عينه باشا الجزائر سفيرا له بالمغرب الأقصى²³.

¹⁹ - الصباغ: قصيدة في رثاء الشيخ العدلي غير منشورة، توجد نسخة منها في مكتبي الخاصة.
²⁰ - لقاء مع فضيلة الشيخ: محمد الطاهر آيت علجت، الذي أمدني بهذه المعلومات مشافهة، وذلك يوم
²¹ - الورثياني، المصدر السابق، ج 1، ص 49. وكذلك:

محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، دمشق، (د.ت)، ص 169.
²² - الحسين بن محمد الورثياني السطيفي الجزائري: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيانية، مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني، قام على خدمتها: محفوظ بوكراع، وعمار بسطة، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2011، المجلد الأول، ص 46.

²³ - محند أكلي آيت سوكي: الشيخ العدلي دور زاويته الفكرى ونضالها الجهادي منذ القرن التاسع الهجري/15م، في: مجلة فكر ومجتمع، تصدر عن طاكسيج. كوم للدراسات والنشر والتوزيع، العدد 35، ديسمبر 2016، ص 269.

انتشار سمعة الشيخ العدلي:

لقد ذاع صيت الشيخ العدلي بين الناس في المنطقة وخارجها، فقصدته الداني والقاصي راغبين في التعلم عنه والاعتراف مما وهبه الله تعالى له من علم وولاية، وقد أشار إلى ذلك الشيخ: الموهوب أولحبيب في قصيدة له جاء فيها:

أتيتك يا قطب الوجود وغوثة ومن يرتجى للمعضلات المعظائم
أتيت بأوزار عظام ثقيلة وما بجسي ساكني وملازمي
وقد أعى الأطباء لم أجد لعلاجه سواكم طيبا عارفا بالمراهم
فداووا وارغبوا في علاجه بمحو ذنوب موبقات قواصم
قصدتك أبغي الجاه والعز والتقى وكثرة رزق طيب متراكم
وأطلب علما نافعا أكتفي به وتقوى تقينا من جميع المحارم
مفاخركم شاعت وذاعت بغيرنا وأوتيت على التعداد يا خير حازم²⁴

لقد حافظت الذاكرة الشعبية على مناقب الشيخ العدلي، ووردت في شكل أشعار باللغة

الأمازيغية وبالنطق المحلي، والتي من بينها:

بسم الله أوجيد أحفان أتس رفضض فلي
أذعيفكيد سني العدنان فطيمة ذا علي
رؤقاغ أسيزي الجبران لعفو ذا للغفران
الغاني غور ذعيف قبلي

بسم الله الواحد الذي يحن على الخلق ارفع عني الأوهام
دعوتك بجاه النبي العدنان وابنته فاطمة وعلي
أرزقني يا إله الشفاء والعفو والمغفرة من الذنوب
يا أيها الغني دعوتك فاقبل دعائي

ذكرغ إخذيمن انسيدنا سليمان أوبييو وأوغيتسلي
تكسض فوليو لغمام أضجيف ذق مغبان
أذكتشي إي ذا الولي
توسلت برفاق سيدنا سليمان ألا تغمر قلوبنا الأوهام
انزع عن قلبي الضباب لأنني أصبحت مهموما

²⁴ - الموهوب أولحبيب: قصيدة مخطوطة ضمن خزانة (أفنيق) أولحبيب بأث ورثيران.

فأنت القادر على كل شيء
أطير أبو لجناج إغمان أفك ذي الليالي
نتخيل أوقر إومان ذي ثقنا وعلي
ثاوضن غيزم أبركان أذرباب البوهان سيذي يحيى المعنلي²⁵
يا أيها الطائر ذوا الأجنحة الطويلة حلق خلال الليالي
اقطع البحار من فضلك واصعد في السماء عاليا
لتصل إلى الأسد الأسود صاحب القدر العالي سيدي يحيى العديلي.

إسهامات الزاوية العدلية في ترسيخ قيم السلم الاجتماعي:

لا يختلف دور الزاوية العدلية عن أدوار الزوايا في الجزائر عامة والمنطقة خاصة. فمراد المؤسسين لها لا يخفى أنه اجتماعي ديني علمي، فالاجتماع للصلوات المفروضة، وللنظر في شؤون جماعتهم من فصل في القضايا المتخاصم فيها، والإصلاح بين الناس، والتعاون بينهم عند اللزوم²⁶. فمن أجل ترسيخ هذه القيم تأسست الزوايا وكثرت تعدداها، حتى أن منطقة الزواوة اشتهرت بكثرة الزوايا فيها. وتقوم بعدة مهام أهمها:

نشر التعليم العربي الإسلامي بين أفراد العامة التواقين للمعرفة.

اسعاف المحتاجين والذين انقطعت بهم السبل.

رأب الصدع بين المتخاصمين، وبصفة عامة رعاية المجتمع²⁷. بل هناك من اعتدوا تسمية المنطقة مرده إلى كثرة الزوايا²⁸.

لقد عمل المؤسسون الأوائل لهذه الزوايا في هذه الجبال الوعرة على التأقلم مع السكان، فتعلموا لغتهم ودرسوا بها، وبها شرحوا مختلف المعارف المتوفرة في وقتهم، ونزلوا إلى مستوى العامة الذين أحبهم واستأنسوا بهم خاصة وأن هؤلاء المؤسسين لهذه المراكز العلمية قد أدرجوا علوم التصوف ضمن مناهجهم التعليمية، فأقبل المتعلمون على علوم اللغة والفقه والقراءات والحساب وغيرها من العلوم التي نبغ الكثير منهم فيها. بينما أقبل العامة على حلقات الذكر والحضرات الليلية التي تقام في العديد من القرى²⁹، ولعل انتشار هذه الحلقات، من بين أهم العوامل التي ساعدت على

²⁵-Belkacem Ben sdira, Cours de langue Kabyle- grammaire et virsione, alger, Librairie Adolphe Jurdan, 1887, p 394, 398.

²⁶- أبو يعلى الزواوي : تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005، ص 134.

²⁷- محمد السعيد بن زكري: أوضح الدلائل في وجوب اصلاح الزوايا ببلاد القبائل، عرض وتقديم وتعليق: محمد أرزقي فراد، دار هومة، الجزائر، 2015، ص 59.

²⁸- أبو يعلى الزواوي: المصدر السابق، ص 132.

²⁹- أحمد ساحي: أعلام من الزواوة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2015، ص 31.

نجاح الرواد الأوائل لنمو وازدهار الجماعات المحلية والتراث العقائدي، وهي الظاهرة التي كانت منتشرة في بجاية منذ عهد سيدي بومدين الذي يعود إليه الفضل في تأسيس الحلقات الخاصة بالذكر³⁰. إن الزاوية العدلية، تعد من بين الزوايا الرائدة في تجسيد قيم السلم الاجتماعي بين أفراد المجتمع المحلي، وبين ساكنة الأعراش القريبة إليها. فالزاوية العدلية، على الرغم من كونها قطبا علميا بامتياز. فلم تعرف المنطقة الممتدة من آث يعلو إلى بوجليل مرورا بآث ورثيران وآث عباس نهضة علمية كما عرفتها بعد ظهور زاوية الشيخ سيدي يحيى العدلي³¹. لكنه لم يهمل الجوانب الحياتية الأخرى، وعلى رأسها الحياة الاجتماعية، لأن صلاح المجتمع من نتائج النهضة الفكرية التي أحدثها في المنطقة، وقد تجلى ذلك في:

1- إصلاح حالة المجتمع المحلي:

لقد بين لنا الصباغ في مرثيته للشيخ العدلي جوانب من الوضع الاجتماعي المتدهور الذي كانت عليه المنطقة، وكذا مظاهر انحراف الناس عن السلوك القويم والدين الصحيح. وعلاجاً لتلك الأوضاع نوه بالدور الذي أداه الشيخ العدلي في إصلاحها، مساهما في تصحيح المظاهر السلبية التي كانت سائدة بين الناس، فلم يكتف بالتعليم فقط، بل كان له دور وعظ الناس وارشادهم، والفصل في منازعاتهم³². هذا، ونبه الشيخ الصباغ إلى الوضعية الصعبة التي كان يعيش فيها المجتمع المحلي بفعل ما انتشر فيه من الضلال، وفساد الدين، وجور ولاة أمور المسلمين، وظنك المعيشة، وانعدام الأمن. فصور معاناة الناس من هذه الأوضاع السيئة³³، وشكواهم منها، فمل العامة منها، وتضرعوا إلى الله أن يخلصهم مما حل بهم من بؤس وكره، وهموم وأحزان، فجعل الله الشيخ سيدي يحيى سببا لاستجابة تضرعاتهم بما بثه فيهم من أفكار إصلاحية، وتهذيب لسلوكهم، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، والانتصاف للمظلوم، وردع الظالم. وفي هذا يقول الصباغ:

فما هو إلا أن تمالوا على الدعا بصدق وإخلاص وجمع لهمة
ليأتهم بشيو معلن غير خاف أيا إنهال أبشروا بالمسوة
أتاكم غياث جامع لشتاتكم يقيم الهدى حقا ومحبي الشريعة
ويمحو ضلالة الجهالة والعمى وينفي ولاة الجور في كل فجوة

³⁰- أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية... ص 34.

³¹- الورثياني: شوارق الأنوار... ج 1، ص 45.

³²- علي أمقران السحنوني: هذا الشيخ المجهول (الشيخ أبو زكرياء يحيى العدلي) 881هـ/1476م، في مجلة الدراسات التاريخية، تصدر عن معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 4ع، الجزائر، 1408هـ/1988م، ص 48.

³³- الورثياني، شوارق الأنوار... ص 53.

وينتصف ال مظلوم من ظالم عدا ويعتذر للجاني إليه بذلة³⁴
لقد استعان في مساعيه الإصلاحية بالعمل على دعوة المذنبين إلى التوبة النصوحة إلى الله تعالى، وإرشاد التائبين إلى سبل الخير والأخذ بأيديهم إلى ترك الشر وإلحاق الأذى بالآخرين فقال:
وذوا ذنب يبكي يستغيث به عما عسى عطفه المولى عليه بتوبة³⁵
يضيف الصباغ كذلك إلى جانب الأدوار الاجتماعية السابقة لشيخه، دور آخر انعكس على المقومات التربوية لمؤسس الزاوية العدلية في وحدة المجتمع وتماسك أواصره، وجمع شمله، فيقول:
مضى الجامع الشمل المؤمل جوده فأصبح مغناه سرايا بقيعة³⁶
هذا، وأفادنا الصباغ من خلال هذه المرثية بلمح آخر من ملامح الإصلاح الاجتماعي الشامل والعام الذي دعا إليه الشيخ العدلي، وبذل جهوده لتحقيق ذلك، والمتمثل في السعي إلى إحلال الأمن وحماية الناس في أنفسهم وأموالهم، ورد عدوان المعتدين عليهم، خاصة وأن حكم السلطان في المنطقة غائب عنهم³⁷، بل حتى تأمين سبل المسافرين كان منعدها، وهذا ما جعل الناس يلتجؤون إلى حفيد الشيخ العدلي (محمد الموهوب بن علي الزواوي العدلي) الذي كان يتردد مع القوافل والسفارات المجتازين ببلادهم لكي يأمنوا من مكر أهل ذلك³⁸، وكل من أجل ترسيخ قيم السلم والأمن في المنطقة، وقد أشار إلى هذا الأمر أحدهم، فقال:

وتأمن سبل الناس في كل جانب ومن يعتدي يوما سريعا بحسرة
فمن للمحى بعد الحمام يحوطه ومن يقصد العاني لرفع ملة³⁹

يعد هذا، مؤشرا قويا لتعدد الأدوار التي كان يؤديها الشيخ العدلي، فلم يكتف بالتعليم والتربية، وتأديب مريديه وتهذيبهم، بل امتدت مجالات نشاطه وأدواره إلى الإسهام في إصلاح الأوضاع الاجتماعية العامة السائدة، لكونه يدرك تمام الإدراك أن المسلم يجب عليه أن يهتم بأمر المسلمين مصداق لحديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا».

2- شفاعته في قضاء حاجات الناس:

لقد ذكر الورثياني أن الشيخ العدلي، كان يتوسط بين السكان والسلطة القائمة

³⁴ - قصيدة مخطوطة في مكتبتي الخاصة. في رثاء الشيخ سيدي يحيى العدلي.

³⁵ - نفسه.

³⁶ - نفسه.

³⁷ - الورثياني، الرحلة...، ج1، ص 83.

³⁸ - عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، لبنان، (د.ت)، ص 201.

³⁹ - الصباغ، المصدر نفسه.

في بجاية من ولاية الحفصيين، إذ كانت مكانته سببا في تقرب المظلومين إليه ليشفع لهم أما جور هؤلاء الولاة، وقد ذكر الورثياني توسط العدلي عند امراء بجاية فقال: «وكان يكا تب الأمير عبد العزيز - عزوز - المتوكل (796-838هـ/1393-1434م)⁴⁰ في حوائج الناس ومصالحهم، فتارة يمتثل، وتارة لا، فإن لم يمتثل كتب إليه مرة أخرى مع فظ القول وتغليظه، فعند ذلك يجيب قوله ويمتثل أمره، وأنه قال: هذا الأمير، أعامله بحسن الخلق والقول اللين فلم يستيقظ، ولو أذقته شيئا من القدر يعني شر القدر وسوء القضاء لعرف قدره»⁴¹.

هذا، وتوسط لرجل من قرية تابودة⁴² اتهم بوجود كنز في داره ولم يسلمه للسلطان، فأخذ. مما جعل الشيخ سيدي يحيى يتدخل لإطلاق سراحه لعلمه بأن هذا الرجل لم يجد شيئا، وكتب للسلطان كتابا جاء فيه: «إما أن تطلقه لوجه الله، لأنه والله لم يجد شيئا مما اتهمته به، أو نعطيك ما اشتريته. فلما رأى السلطان الكتاب أطلقه»⁴³.

ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء الأمراء كانوا يستشيرونه في أمورهم حتى الخاصة منها، فغالبا ما يقفون عند مشورته، وإلا حل بهم ما لا تحمد عقباه، فقائد من بجاية يدعى: محمد بن العالم كاتبه في أمر تخليه عن عمله بعدما طلبه السلطان، يريد هذا القائد الاحتماء بالشيخ والاعتزاز به، ويبقى في عمله رغما عن السلطان، ويظهر أن سلوك القائد غير حميد، لأن الشيخ أشار له بالتخلي، فلما راجعه القائد محمد، غضب الشيخ، وقال كلمته فيه... ليس لي الآن معه كلام، ولكي أكلم غيره⁴⁴، فلم يمض وقت حتى أخذ السلطان ذلك القائد، وعززه وسجنه عاما ونصف عام وغرمه ألف دينار⁴⁵.

وهذا يدل على خطورة ما يقوم به الشيخ في المنطقة، وأنه كان متفتحا،

ومطلعا على مجريات الأمور فيما حوله، وفي العالم، وليس مقتصرًا على النسك والتهجد⁴⁶.

3- توسطه في تخفيف الضرائب على الناس:

من العادات المتبعة في العرش والعروش المحيطة بالزاوية العدلية، ظاهرة

(ثاغفارث)⁴⁷، وهي عبارة عن تقديم الفلاحين لكميات من منتوجاتهم الفلاحية للزاوية العدلية ولذرية الشيخ العدلي وأحفاده فيما بعد. وأسباب هذه العادة المعروفة في المنطقة تعود -حسب الروايات الشفوية- إلى عدة تفسيرات من بينها:

⁴⁰ - أمقرانا لسحنوني: المرجع السابق، ص 41.

⁴¹ - الورثياني: مناقب الشيخ سيدي يحيى العدلي، مخطوط بخزانة السيد محفوظ بوكراع، أمك صورة عنه في مكتبتي الخاصة.

⁴² - قرية صغيرة تقع بإيلماين، عرش بني يعدل الذي يقع إلى الشرق من قرية الشيخ العدلي، وقد ذكر ابن فرحون هذه القرية.

⁴³ - مناقب الشيخ سيدي يحيى العدلي، المخطوط السابق ذكره.

⁴⁴ - نفسه.

⁴⁵ - السحنوني، المرجع السابق، ص 41.

⁴⁶ - نفسه، ص 41.

- أن الضرائب التي فرضها الأمراء على سكان المناطق الجبلية، وحتى الهضاب

العليا التابعة لإمارة بجاية، كانت مرتفعة جدا، ولا يستطيعون دفعها، فطلبوا من الشيخ العدلي أن يتوسط بينهم وبين هؤلاء الأمراء بغية تخفيفها، أو إلغائها كلية مقابل دفعها لزواية الشيخ العدلي وذريته، فقبل الشيخ العدلي ذلك، واستطاع بفضل سمعته ومكانته عند سلاطين الإمارة أن يسقطها عن السكان، فأصبحوا يدفعونها للزواية، وكذا ذرية العدلي فيما بعد، وقد تم الاتفاق بين أحفاد الشيخ على توزيع مناطق جلب هذه الغفارة على بيوت أحفاده، وهي الظاهرة التي بقيت منتشرة ومتبعة إلى غاية الستينات من القرن الماضي، ويقدمها الناس طواعية ورغبة في الحصول على الثواب والأجر⁴⁸.

لقد استطاع الشيخ العدلي في حياته، وأحفاده بعد وفاته، تحقيق السلم الاجتماعي في المنطقة خاصة والمناطق القريبة إلى زاويته عامة، وذلك بفضل مكانته بين الناس، والحكام الذين عاصروهم، وقد بين لنا هذه المكانة تلميذه عبد الرحمن الصباغ لما قال فيه: «من نور الله بصيرته، وحسن سريرته، فكسى من حلال أنواره، فظهر عليه بركات أسراره، شيخنا الإمام المشتهر بالعلم والصلاح بين الأنام، الذي ألف الله بركاته قلوب العباد، وأحيا بركاته ما اندرست أعلامه من البلاد، وظهرت بركاته على من لاذ بحماه، وتحصن بحمد الله من الغير من تمسك بعروتهن سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا، سيدي أبوزكريا يحيى بن الشيخ المقدس المرحوم أبي العباس أحمد العيدلي، أعلا الله في الدارين قدره ورفع ذكره»⁴⁹.

عن الأدوار العلمية والاجتماعية التي قدمها الشيخ العدلي وذريته، وكذا الزاوية العدلية، أكسبته وقارا بين الناس، ومكانة دينية وعلمية واجتماعية كبيرة، جعلت الخاصة قبل العامة يولونه مكانة خاصة بينهم، ويسمعون لكلامه وارشاداته وتوجيهاته في إحلال السلم في المنطقة. ومحاربة مظاهر التطرف الديني والفكري، فعظم أمره في عيون الحكام والناس جميعا، فاحترمه الجميع وعظموا شأنه، وفي هذا قال تلميذه الصباغ:

كذلك الملوك الشامخات أنوفهم أتته على الأقدام تمثي بذلة
لقد وسع الناس الجميع كرامة حلما بأخلاق حسان وطيبة
وما منهم إلا يبوح بفضله ويثني عليه في مغيب وحضرة

⁴⁷ - الغفارة، من المغفرة والثواب، اعتقادا منهم بأن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم ذنوبهم ويبارك لهم في انتاجهم ومحاصيلهم الزراعية، كما أن هذه الصدقة تحميهم من الأمراض والجوائح التي تلحق بزرعهم.

⁴⁸ - معلومات استقيتها من خلال الشيوخ، وكبار السن من أحفاد الشيخ العدلي.

⁴⁹ - شرح الوغليسية (عمدة البيان في معرفة فروض الأعيان) مخطوط بمكتبة الحرم المدني، وكذا مخطوط المكتبة الخاصة بالسيد محفوظ بوكراع، بمدينة سطيف، ص1. أملك نسخة عن المخطوط في مكتبتي الخاصة. ص01.

المتخاصمين، والتوسط لاسترجاع حقوق المظلومين في العهود التي تلت الشيخ العدلي، سواء في عهد ذريته، أو أحفاده الذين كانوا ينتقلون إلى مختلف قرى الأعراس المحيطة بالزاوية من أجل الفصل في القضايا التي تطرح عليهم حتى اقترن اسم العرش الذي نشأ فيه شيخ الزاوية بالعدل، فسمي بعرش آث عيذل عوضاً عن اسمه السابق، آث نوح.

الملحق

